# الحجاج الإشاري وبلاغته

الطالب الباحث عمر أيت أكثير
أستاذ التعليم الابتدائي
طالب باحث في سلك الدكتوراه
جامعة السلطان مولاي سليمان، بني ملال
المغرب

**تمهيد:**

قيل أن الصمت أبلغ من الكلام، عادة ما نسمع هذا المثل فنتساءل: هل للصمت بلاغة؟ هل الصمت حجة؟ هل للصمت تأثير؟ أيحقق الصمت التواصل؟

وجوابا على هذه التساؤلات نستحضر من كلام الله ما هو شاهد للاستدلال به يقول عز وجل: ﴿إِنِّي نَذَرتُ لِلرَّحمَٰنِ صَوما﴾، وصام عن الكلام، سكت وقيل معناه صمتا.[1] لقد نذرت مريم لربها صوما عن الكلام، وذلك أمر من الله عز وجل لها بألا تجيب أحدا عن حالها وحال مولودها عيسى-عليه السلام-، بل أوكل الله جواب القوم لمن كان في المهد صبيا، وهذا حتى تقر عينها ويكون دليلا على عفتها وطهارتها. ومنه عظمته لحكمة وليس عن عي، وتلك مشيئة الله تعالى وقدرته أن كفاها تطاول ألسنة الناس عنها بإسكاتها وأنطق وليدها[2]، فالصمت في هذه الآية حجة تقريرية قوية تثبت عفة مريم، بها واجهت قومها وإلا ما برهان الكلام في حالتها التي خرجت عن عادة المألوف، وأي كلام يقنع القوم على أنها ولدت بلا زوج، فكان الصمت أبلغ وأنفع من إقناع القوم، يقول عز و جل في سورة آل عمران: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمزا﴾، إلا إشارة بيد أو رأس أو غيرهما وأصله التحرك[3]، فزكرياء-عليه السلام- لم يكن يعتزل الناس، بل بقي معهم في تواصل، غير أنه تواصل رمزي إشاري فقط. ولكن خطابه مع قومه، هل يحقق الأثر التخاطبي الذي يحققه بالكلام؟.

والجواب يكون بالإيجاب مادام الله أمره بالتواصل مع قومه بالرمز.

وفي الشعر يقول عمر بن أبي ربيعة:

أشارت بطرف العين خيفة أهلها  إشارة محزون ولم تتكلم

فأيقنت أن الطرف قد قال: مرحبا  وأهلا وسهلا بالحبيب المتيم[4]

والإشارة هنا في البيتين حققت مراد الحوار، وهو حوار رمزي إشاري لم ينسج بالألفاظ، وإنما نسج بالإشارات، والشاعر هنا يصف حبيبته التي أشارت إليه بطرف عينها مرحبة به دون كلام خوفا من أهلها، فالتقط الشاعر إشارة القبول منها، وهنا يكمن دور الإشارة كحجة تأثيرية تقريرية في عملية التواصل ودليل ذلك تحقيق التأثير ومقصدية الخطاب، ودليله أيضا تكلم الناس مع الأخرس بالترامز.

**- الإشـارة وأنواعها:**

إذا كانت الأصوات التركيبية المنطَق بها والمشكلة لعبارات متتالية والمحدَثة للكلم، وسيلة تأثيرية تواصلية بها نحقق غاياتنا ومقاصدنا، فإن الإشارة باعتبارها رموزا قد ترافق تلك الأصوات وقد تكون غير مرافقة لها، وسيلة تواصلية شأنها شأن الكلام، فليس الكلام وحده الحامل للمعنى، وإنما تحقق الإشارة أيضا معان تأثيرية في الخطاب قد لا يحققها الكلام. والإشارة "ما وضع لمشار إليه"[5]، قد يكون هذا الوضع لفظا أو إيماء، أو رمزا... والإشارة أنواع كثيرة نذكر بعضها:

– الإشارة الصريحة: وهي أن يحمل الكلام لفظا ظاهرا يدل على المشار إليه صراحة دون تضمين معنى خفيا في القول، كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِ﴾، ولفظ (**ذَٰلِكَ**) إشارة صريحة "إلى الكتاب النازل بالفعل وهي السور المتقدمة على سورة البقرة... ويجوز أن تكون الإشارة إلى جميع القرآن ما نزل منه وما سينزل لأن نزوله مترقب فهو حاضر في الأذهان فشبه بالحاضر في العيان، فالتعريف فيه للعهد التقديري والإشارة إليه للحضور التقديري فيكون قوله الكتاب حينئذ بدلا أو بيانا من ذلك والخبر هو لا ريب فيه"[6].

وفي سورة الأنبياء يقول عز وجل: ﴿**إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ**﴾، فالخطاب في هذه الآية موجه للأنبياء المذكورين في الآيات السابقة، واستعملت فيه إشارة (**هَٰذِهِ**) للحالة التي هم عليها يعني في أمور الدين كما هو شأن حال الأنبياء والرسل[7].

والإشارة هنا صريحة تأتي قبل اسم (**أُمَّةً** ) كحجة توضيحية لحال الأنبياء والرسل من خير وصلاح وتوحيد.

وللإشارة في سياق هذه الآية دور حجاجي كبير، فهي بمثابة حجة قوية تتوازى مع السياق وتحمل دلالة بالغة لتشكل خطابا مثاليا جمع بين دلالة الإشارة البعيدة القريبة وقوة اللفظ، تترك أثرا بالغا لدى السامع، وسنوضح ذلك من خلال ما يلي:

علاقة صريحة

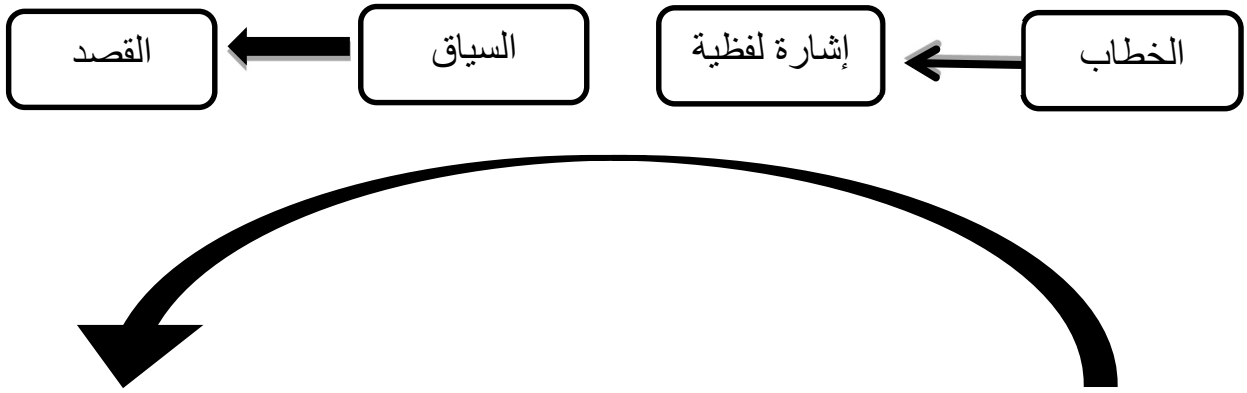


وقد تقول: "هذا باب" فتكون الإشارة هنا لفظا ظاهرا يحمل معنى مباشرا لا يُحَمّل الذهن عناء التفكير لاستنباط معان أخرى غائبة في هذا المثال، سنبينها في موضع لاحق. وأيضا في قوله تعالى: ﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۚ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا﴾[8]، والإشارة في هذه الآية صريحة لا تتجاوز الإحالة إلى عيسى عليه السلام، وقوله عز وجل: ﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِ﴾ "إشارة دلت على أنها تحيلهم ليسألوه عن قصته، أو أشارت إلى أن يسمعوا منه الجواب عن توبيخهم إياها وقد فهموا ذلك من إشارتها"[9].

وحجة الكلام تكون ضعيفة مع مشهد لم يعتادوه، فكانت الإشارة الصريحة هنا مع حضور المشار إليه كذلك بصفة من عهدوه لا يتكلم تناسقا قويا بين الحجة الإشارية كتمهيد باهر للنتيجة اللاحقة، وهي معجزة تكلم عيسى –عليه السلام–.

– الإشارة الضمنية: يتكون الكلام من الظاهر والباطن؛ ظاهر التركيب وباطن الدلالة، "والظاهر: هو الذي ينساق إليه الذهن قبل غيره، والباطن: هو ما وراء ذلك من إشارات خفية"[10]، والكلام لم يكن ذلك النسيج من الأصوات المتتالية المشكلة له دونما النظر إلى ما يحمله هذا الكلام من خفايا مستنبطة، تكون عبارة عن إشارات دلالية توافق مقتضى الحال، يختلف استنباطها من شخص لآخر حسب درجة الفهم والتأويل.

أما الإشارة التي نتحدث عنها في هذا المقام فهي تلك الباطنة المستترة وراء جدار التركيب. أو قل الإشارة الضمنية، وتربطها بالتركيب علاقة تلازم كأن تقول مثلا، "أنا عطشان"، فهذا القول لا يحمل قصد الإخبار فقط، وإنما يحمل في باطنه "الحاجة إلى الراحة"، لكن بين عبارة التركيب "أنا عطشان" وعبارة القصدية المستنبطة "في حاجة إلى ماء" علاقة تلازم وترابط من خلال إشارات واستعارات سياقية بين التركيب والدلالة وهذه الإشارة هي ما نسميه إشارات ضمنية، وسنوضح ذلك من خلال أمثلة:

يقول عز وجل: ﴿أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾، فالقصدية في هذه الآية لا تشير إليها الآية بصراحة العبارة وإنما "يراد بها فرج القميص، أي لم يعلق بثوبها ريبة، أي أنها ظاهرة الأثواب، وفروج القميص أربعة: الكمان، والأعلى، والأسفل، فلا يذهبن وهمك إلى غير هذا من لطيف الكناية، لأن القرآن أنزه معنى، وأوزن لفظا، وألطف إشارة، وأملح عبارة من أن يريد ما يذهب إليه وهم الجاهل"[11].

وفهم إشارة هذه الآية يحتاج إلى تأويل متبصر يستند إلى فهم سياق الخطاب ودلالة التركيب حتى لا ينجرف الفهم إلى غير القصد فيضيع التأويل الحق؛ وسنوضح ذلك من خلال ما يلي:

علاقة تلازم (إشعار)

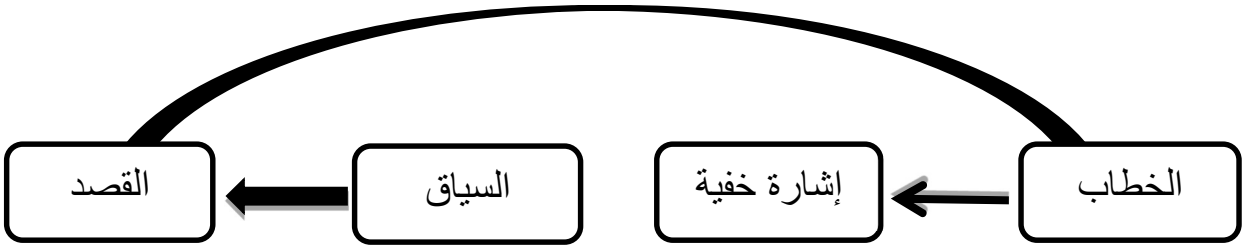


ولكي تكون الإشارة الخفية حجة تأثيره قوية لابد أن تتميز بعدة سمات يمكن ذكرها على الشكل الآتي:

– أن تكون الإشارة سياقية: بمعنى أن تناسب موقف التخاطب، أي إذا كان الكلام مرفوقا بالإشارة ينبغي أن تكون هذه الأخيرة مرتبطة بمقتضى الحال؛ بالحدث والوظيفة التي تؤديها.

– أن تكون الإشارة زمانية: تتم هذه الإشارة بأزمنة الأفعال، فإذا كان الفعل ماضيا تكون الإشارة دالة على زمن الماضي المنتهي، وإذا كان الفعل في زمن المضارعة دلت الإشارة على الاستمرار، وإذا دلت الإشارة على زمن الاستقبال كانت الإشارة موازية مع زمن الحدث.

إذا توفر هذين الشرطين أو أحدهما في خطاب ما تكون الإشارة في الخطاب إشارة بليغة ذات قصدية وحمولة معنوية تُظهر درجة الإقناع والتأثير والإبلاغ، قوية بالموازاة مع قواعد الخطاب الأخرى التي ذكرناها آنفا، وسنتحدث بالتفصيل في كل نوع على حدى في ثنايا هذا البحث بحول الله.

– الإشارة التناظرية:

ذكر في معجم المعاني تناظر الجماعة: تجادلها وتحاجها في قضية من القضايا، وتناظر الطالبان في الموضوع: تجادلا و تحاجا فيه[12]، ومنه المناظرة أي حوار وجدال على قضية فيها إشكالية معينة.

والمناظرة حوار كلامي يعرض فيه المتناظرون حججا وتبريرات تعزز مواقفهم وآراءهم، وحتى تكون المناظرة خالية من الصراعات السلبية لعلة إغفال ضوابط وقواعد التناظر الفعال التي تسبب في تهييج النفوس وفساد الرأي والتعصب، فيؤدي ذلك إلى ما سميناه بنشازية الحوار.

ومن منطلق أن كل مناظرة لها غايه مقصودة يسعى المتحاور فيها إلى تحقيقه، كان لزاما صيانة شروط التناظر لإقناع الطرف المتحاوَر بحجج منطقية دون إرغامه بعنف الكلام، يقول عز وجل: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾.[13]

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾.[14]

"والمجادلة: الإحتجاج لتصويب رأي وإبطال ما يخالفه أو عمل كذلك. و لما كان ما لقيه النبيء –صلى الله عليه وسلم– من أذى المشركين قد يبعثه على الغلظة عليهم في المجادلة أمره الله بأن يجادلهم بالتي هي أحسن"[15].

وأسلوب التفضيل في قوله عز وجل: ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ مبالغة في الحسن واللين، ووجه الوصاية بالحسنى في مجادلة أهل الكتاب أن أهل الكتاب مؤمنون بالله غير مشركين به فهم متأهّلون لقبول الحجة غير مظنون بهم المكابرة ولأن آداب دينهم وكتابهم أكسبتهم معرفة طريق المجادلة فينبغي الاقتصار في مجادلتهم على بيان الحجة دون إغلاظ حذرا من تنفيرهم"[16].

ونظير التناظر في الخطاب القرآني ما يلي:

تناظر موسى وهارون مع فرعون لإقامة الحجة بعد طغيانه وجحده لقبول الحق يقول عز وجل: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾[17]، وتحقيق المراد من التناظر –كما أسلفنا الذكر– يحتاج إلى لين الكلام وعرض الحجج لإقناع الآخر وحسن المواجهة، وكذلك فعل موسى –عليه السلام– بتأييد من الله، فكانت مؤازرة هارون لموسى مع تعزيزهما من الله بحجتين أمرا كافيا للدخول في هذه المواجهة الصعبة، خاصة مع سياق الأثر القديم الذي تركه موسى في مملكة فرعون، وكان ذهاب موسى مع هارون إلى فرعون مجابهة بما لا يكره، وقيل لا تجبهاه بما يكره، وألطف له في القول، لما له من حق تربية موسى.[18]

ومما سبق، لكي يكون فعل التناظر فعالا ينبغي أن يتصف المتناظِر ب:

- تهذيب الأخلاق وإظهار التواضع وحسن الكلام.
- بمنطق مقبول في آرائه وأن يستند إلى حجج قوية.
- بلغة فصيحة، بلاغية، لأن الجدال يحتاج إلى لغة بليغة بألفاظ مؤثرة.
- بقوة الفكرة والاقتناع بها.

ونشير إلى أن الإشارة التناظرية غالبا ما تكون في الخطاب بشكلها الضمني، تتحقق بتفاعل الشروط التي ذكرناها لتحقيق غاية التناظر.

**– القوة الإشارية:**

لو لم تكن الإشارة لها دور تأثيري حجاجي، لما أشارت مريم –عليها السلام– إلى ابنها، فكانت الإجابة المؤثرة بعد استغراب قومها، وإنكارهم بما جاءت به ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا 30 وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا 31 وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا﴾[19]، وهذا الاتصال الغير اللفظي من قبل مريم –عليها السلام– كان أبلغ وأوصل بالمراد الذي يبتغيه الله عز وجل من هذا الخطاب، وهو اتصال

إشاري غير لفظي عبارة عن مرشح صامت له تأثير واسع... إنه يمدنا بأسلوب في نقل الرسائل الاتصالية دون استخدام اللغة اللفظية. وربما يقوم الاتصال غير اللفظي بتدعيم الاتصال اللفظي أو يسلب جزءا منه، وينظم العلاقات بالتأثير في تقديم التفاعل واستمراره، وإذا تأملنا هذا التعريف وجدنا أن الإشارة أحيانا تخدم اللفظ في تحقيق التأثير، وذلك ما وجدناه في خطاب مريم مع قومها، أي أن مريم استندت بالإشارة، ودعمها الله بمعجزة الكلام من عيسى –عليه السلام– لتتحقق الوظيفة التفاعلية الإخبارية. إذ إن الإشارة – في هذا الخطاب–أثرت في السلوك التفاعلي لمن خاطب مريم –عليه السلام–، فنقول أن الفعل التفاعلي متبادل بين مريم –عليه السلام– لأنها تزيد تبرئة نفسها من اتهامات قومها، وبين قومها الذي لم يعهد ما جاءت به من معجزة، فكان الخطاب الإشاري هنا خطابا إخباريا تفاعليا جعلت منه الإشارة نسقا تأثيريا إبلاغيا.

يقول عمر بن أبي ربيعة:[20]

دعاه الى هند تصاب ونظرة تدل على أشياء فيها متالف

فأتبعتهن الطرف متّبل الهوى كأني يعانيني من الجن خاطف

نشكو وتشكو بعض ما وجدت كل لوشك البين معترف

ومقالها ودموعها سبل أقلل بوجدك حين تنصرف

فالنظر والدموع إشارتان دالتان على الوجد الحاصل بين الشاعر ومعشوقته، ولم تكن الشكوى عنده مرفوقة باللفظ، وإنما اكتفى بالإشارات الرامزة دلالة على قوة التأثير؛ إذ أبلغت وأثرت وأوصلت المراد وهو حزن الشاعر على فراق من يحب.

**– النظر ودلالته الإشارية:**

من قوة الإشارة أيضا النظر وهو صنفان: نظر عيني عضوي ونظر تبصري قلبي؛ وهو إشارة ترافق العبارة ليشكلان خطابا حجاجيا دالا، ولنا في قول عز وجل حجة على ذلك: ﴿فَنَظَرَ نَظۡرَةٗ فِي ٱلنُّجُومِ (88) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٞ﴾[21]، قال ابن كثير في تفسيره: "قال قتادة: والعرب تقول لمن تفكر: نظر في النجوم، يعني قتادة: أنه نظر إلى السماء متفكر فيها يلهيهم به". وفي تفسير القرطبي عن الخليل والمبرد يقال: للرجل إذا فكر شيئ يدبره: نظر في النجوم، أي أنه نظر في النجوم، مما جرى مجرى المثل في التعبير عن التفكير لأن المتفكر يرفع بصره إلى السماء لئلا يشتغل بالمرئيات فيخلو بفكره للتدبر فلا يكون المراد أنه نظر في النجوم وهي طالعة ليلا، بل المراد أنه نظر للسماء التي على قرار النجوم وذكر النجوم جرى على المعروف من كلامهم[22]. ونظرا لأن قوم سيدنا إبراهيم كانوا معروفين بالشرك وعبادة الأوثان وكثرة الضلال منها التنجيم، كان لبد لسيدنا إبراهيم أن يواجههم بما يلطفون من الخطاب، فكانت نظرته إلى النجوم نظرة إيهامهم ومراوغتهم حتى يحقق مراده وهو تبديد أصنامهم وحجة (إِنِي سَقِيم) عذر انتحله ليصرف انتباههم عما سيفعله لاحقا.

وسواء كانت النظرة عينية أو تفكيرية فإنها إشارة مؤثرة حققت المبتغى من خطاب إبراهيم –عليه السلام– المتمثل في إيهام المشركين للوصول إلى تحطيم أصنامهم.

**– بلاغة الإشارة:**

إن الإشارات والتعابير المرفقة للتركيب اللغوي تكون مهمة في بلاغة العبارة. ولا تكون الإشارة أقل تأثيرا إذا أرسلت بغير لفظ، فرغم أن النظام الصوتي له أهمية كبيرة في عملية التواصل، فإنه أحيانا يعجز عن ذلك، يحتاج إلى وسائط تقوية وقد نستغني عنه كليا؛ وسائط تصويرية وإشارية تكون إما رموزا أو علامات كعلامات المرور وغيرها من العلامات المتفق عليها عرفا، بالإضافة إلى إشارات جسمية تختلف دلالاتها

من مجتمع إلى آخر ومن ثقافة إلى أخرى يحكمها العرف وهي غالبا ما تكون إيماءات أو سلوكيات اضطرارية أي "سلوكيات اختيارية للجسم يعبر بها العربي عن اتصاله بمن يتخاطب معه، وكذلك هناك حركات وإشارات اضطرارية تعرض للجسم، أو لعضو من أعضائه، مما لا يكون للإنسان فيها اختيار، منها حركات وإشارات حتمية"[23].

يقول عز وجل: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ 38 ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ 39 وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾[24]، وقوله تعالى: ﴿فأقبلت ٱمرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّت وَجهَهَا وَقَالَت عَجُوزٌ عَقِيم﴾[25]، أي أخذت في رنة لما سمعت البشرى فصكت أي لطمت وجهها بأصابع يدها متعجبة وهي تقول أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا إن هذا لشيء عجيب، إذ كان عمرها تجاوز التسعين وعمر إبراهيم عليه السلام- تجاوز المئة، وكانت عقيما لا تلد قط، فلذا قالت عجوز عقيم، كيف ألد يا للعجب؟[26]

ولا شك أن تعابير الوجه تعكس ما بداخل الإنسان من أحاسيس ومشاعر تظهر معبرة ومؤثرة دون إرفاقها بالكلام، فالوجه العبوس مثلا دال على الحزن وعبرات العين دالة على الفرح أو الحزن، وفتح العين بالموازاة مع فتح الفاه دليل على الاندهاش، وتحريك الرأس أفقيا دال على الرفض ....إلخ

وقول عز وجل: ﴿وُجُوه يَو مَئِذ مُّسفِرَة ضَاحِكَة مُّستَبشِرَة﴾ يجعل إشارات كلها دالة على سعادة المتقين، نتيجة تقوى الله وهي "ثمرة الإيمان والتقوى تظهر على الموقف نورا على الوجه وإشراقا له وإضاءة. وثمرة الكفر... تظهر سوادا على الوجه وغبارا[27]. وفي هذا قال الشاعر: ناصف اليازجي:

وليس الجود بالأموال جوادا ولكن بالبشاشة والقبول

إذا كان الكريم عبوس وجه فما أحلى البشاشة في البخيل

فقال أيضا:

جرت عبراتنا دالا وميما فأصبح جرزها ميما ودالا[28]

فجريان الدمع إشارة على شدة الحزن تساوى فيه المد بالجزر وهذه صورة بليغة على شكل إشاري يرثي بها الشاعر ناصيف اليازجي الشيخ عبد الحميد بن الشيخ جواد الموصلي.

ولإيضاح الفرق بين العبارة والإشارة أو بين الخطاب المنطوق والخطاب الإشاري، فإن الخطاب اللفظي له بلاغة لفظية جمالية تأثيرية، وهنا ينتابنا تساؤل مفاده: هل يمكن أن نتحدث عن البلاغة في الإشارة؟.

لا شك أن العبارة حمالة لدلالات عديده منها ما هو تركيبي صرفي ومنها ما هو دلالي سياقي ومنها ما هو بلاغي جمالي.

إن الإشارة في الخطاب خطة دينامية للخطاب لها أبعاد عديدة كذلك منها ما هو نفسي تعبيري ومنها ما هو بلاغي تصويري إقناعي، تحمل طاقة حجاجية تختلف حسب السياق الذي استعملت فيه لتشكل جدلا حجاجيا مؤثرا يقول عز وجل: ﴿وَيَومَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيهِ يَقُولُ يٰلَيتَنِي ٱتَّخَذتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلا﴾[29]، وإشارة على (عض اليدين) دليل استنكاري بين كلام الظالم الذي فارق طريق الرسول -صلى الله عليه وسلم- وما جاء به من عند الله من الحق المبين، الذي لا مرية فيه، وسلك طريقا أخرى غير سبيل الرسول، فيوم القيامة ندم حيث لا ينفع الندم، وعض على يديه حسرة وأسفا.[30]

إن الخطاب الحجاجي المكتوب يتشكل من خلال آليات وروابط تسهم في توجيه الخطاب سياقيا، كما تسهّل عملية التحليل لدى المتلقي عن طريق فهم الدلالات المختلفة لكل عناصر الخطاب، وذلك لا يختلف تماما بالنسبة للخطاب الإشاري فهو خطاب له آليات وروابط تتشكل من إشارات مختلفة دالة تعد بمثابة مفاتيح تمكن المتلقي من التوغل في أعماق الخطاب وفهم مقاصده.

ولابد أن نشير إلى أهمية التداولية في فهم الخطاب باعتبارها "العلاقة التي تربط العلامات بمؤوّليها"[31]، ولا يقتصر فهم الخطاب بعنصر التداولية فحسب وإنما إلى عناصر أخرى كدرجة الفهم، فالفهم درجات وهي مراتب عند الناس، يقول ابن القيم في إعلام الموقعين: "والمقصود تفاوت الناس في مراتب الفهم في النصوص وأن منهم من يفهم من الآية حكما أو حكمين، ومنهم من يفهم منها عشرة أحكام أو أكثر من ذلك، ومنهم من يقتصر في الفهم على مجرد اللفظ دون سياقه ودون إيمائه وإشارته وتنبيهه واعتباره"[32].

والفهم مرتبط بالتفسير والتأويل، بل إن الفهم درجة أولية من سلم التأويل لأن الفهم الضعيف لنص ما يؤدي إلى تأويل ضعيف، لذا فإن التفسير الإشاري في الخطاب يحتاج إلى فهم إشاري سليم ولا يتأتى هذا الأخير إلا من خلال الإحاطة الكلية للنص أو الخطاب (إحاطة داخلية وخارجية)، ولا تتأتى هذه الإحاطة للعامة من الناس، وإنما هو تأهيل من الله إذا تعلق الأمر بالنص الديني المقدس، قال الصابوني: "التفسير الإشاري: هو تأويل القرآن على خلاف ظاهره، لإشارات خفية تظهر لبعض أولي العلم، أو تظهر للعارفين بالله من أرباب السلوك والمجاهدة للنفس، ممن نور الله بصائرهم فأدركوا أسرار القرآن الكريم"[33].

إن بلاغة الإشارة تكمن في الفهم والإفهام فبأي شيء بلغت فيه الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع"[34]، لذلك قال الجاحظ: رب كتابة تربي في إفصاح، ولحظ يدل على ضمير وإن كان ذلك الضمير بعيد الغاية"[35].

إذا كان اللفظ بتركيبه المعقد أو عدم فصاحته أو استعماله في غير ما يناسب موقفه، فإنه قد يُسقِط الخطاب في النشاز، كذلك الشأن بالنسبة للإشارة، فاستعمال الإشارة في غير سياقها قد يفسد للخطاب غايته لذا يستحسن أن تكون الإشارة بنوعيها:

- سياقية: ألا تخرج عن سياق التخاطب.
- حسنة: أن تستعمل الإشارة بشكل لطيف حتى لا يفهم منها عكس ذلك.
- موازية: أن ترافق جزل اللفظ وطلاوته.

ولكي يكون الخطاب اللفظي فعالا ومؤثرا ينبغي أن يكون التركيب يناسب الدلالة مع إرفاقه بحسن الإشارات.

مدح خالد بن صفوان رجلا فقال: كان بديع المنطق، جزل الألفاظ، عربي اللسان قليل الحركات، حسن الإشارات، حلو الشمائل، كثير الطلاوة، صموتا وقورا، يهنأ الجرب، ويداوي الدّبر. ويقل الحز، ويطبق المفصل؛ لم يكن بالرّمِز المروءة، ولا الهذِر المنطق متبوعا غير تابع.[36]

**خاتمة**

وهكذا، فالإشارة وسيلة حجاجية بلاغية تؤدي وظيفة تواصلية إلى جانب العبارة، بل تفوق أحيانا التواصل اللفظي، ليس لضعف اللفظ في التعبير والتأثير، وإنما لتداخل عوامل أخرى تقويها مثل السياق، كما هو الشأن بالنسبة للعبارة.

فالإشارة ليست أقل شأنا في عملية الإبلاغ والتأثير، فرب إشارة تفي بالغرض فتحقق القصد، ورب عبارة تسقط المتحاور في النشاز. فيفشل الخطاب في بلوغ مرماه.

## الهوامش:

[1] ابن منظور، لسان العرب، المجلد الثاني عشر: ص: 350.

[2] – آية الله عاشوري: لفظ الصمت في الخطاب القرآني بين التصريح والتلميح، مجلة التأويل وتحليل الخطاب، العدد الأصل من المجلد الثاني، ماي 2021م، ص: 139.

[3] – الزمخشري جار الله، (467–538هـ)، الكشاف، تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ محمد علي معوض، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة 1، 1418هـ/1988م، الجزء الرابع، ص: 556.

[4] – ديوان عمر بن أبي ربيعة، قدم وضع هوامشه وفهارسه الدكتور فايز محمد، دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية، بيروت، 1416هـ/1996م، ص: 311.

[5] – النحو الأساسي، ص: 34.

[6] – الطاهر بن عاشور، الجزء الأول، الكتاب الأول، ص: 216.

[7] – الطاهر بن عاشور، الأنبياء، صفحة 140.

[8] القران الكريم، سورة مريم، الآية: 29 .

[9] – الطاهر بن عاشور، الجزء الأول، الكتاب الأول، ص: 97.

[10] – مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، مكتبة المعارف، الطبعة الثالثة، 1421هـ/2000م، الرياض: ص: 368.

[11] – محمد اليوسفي، في علم المبهمات القرآنية، الطبعة الأولى، 1443هـ/2021م– مراكش، مؤسسة آفاق –المغرب، ص: 251.

[12] – ينظر معجم المعاني، مادة (تناظر).

[13] – القرآن الكريم، سورة النحل، الآية: 125.

[14] – القرآن الكريم، سورة العنكبوت، الآية: 46.

[15] – الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، الجزء الأول، ص: 328.

[16] – الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، الجزء الأول، ص: 6.

[17] – القرآن الكريم، سورة طه، الآيات: 43– 44.

[18] – الزمخشري، الكشاف، (467هـ – 538)، تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود و الشيخ علي محمد معوّض، مكتبة العبيكات، الجزء الأول 1418هـ/1998م، ص: 84.

[19] القرآن الكريم، سورة مريم، الآيات: 30–31–32–33،

[20] ديوان عمر بن أبي ربيعة، دار القلم، بيروت– لبنان، ص: 134–135 .

[21] القرآن الكريم، سورة الصافات، الآيتان: 87–88 .

[22] – الطاهر بن عاشور التحرير والتنوير، ص: 141.

[23] – مجلة جامعة سبها (العلوم الإنسانية) المجلد الثامن، العدد الثاني 2009م ص: 49.

[24] القرآن الكريم، سورة عبس، الآيتان: 38–39 .

[25] القرآن الكريم، سورة الذاريات، الآية: 29 .

[26] – أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، أبي بكر جابر الجزائري، طبعة الثانية، 1410هـ/1990م، مجلد الأول، ص: 16.

[27] – أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، ص: 525.

[28] – ناصيف اليازجي، ديوان ناصيف اليازجي اللبناني، النبذة الثانية، المطبعة الأدبية، بيروت: 1998.

[29] القرآن الكريم، سورة الفرقان، الآية: 27 .

[30] – تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (401هـ/774م)، دار ابن حزم، الطبعة الأولى، 1420هـ/2000م، ص: 1357.

[31] – حمو الحاج، ذهبية، التداولية واستراتيجية التواصل، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، 2015م، ص: 126.

[32] – الدكتور حسن بلحبيب، مجلة سبها (العلوم الإنسانية) المجلد الثامن، العدد الثاني، 2009م، ص: 49.

[33] – حسن بلحبيب، مجلة دراسات تاريخية، العدد 26 يونيو 2019، جامعة البصرة، ص: 238.

[34] – لغة الجسد في القرآن الكريم، محمد عبد الهادي عتيق، المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، المجلد التاسع، العدد (1/أ)، 1434هـ/2013م، ص: 82.

(35) – أبو عثمان عمرو بن محمد الجاحظ (ت 255هـ) البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، بيروت، ج.2، ص: 7.

(36) – أحمد بن محمد عبد ربه الأندلسي (328هـ)، العقد الفريد، تحقيق مفيد محمد قميمة، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان– الجزء الثاني، الطبعة الأولى: 1404هـ–1983م، ص: 88.